الاستقراء في النّحو الكوفيّ

من منظور منهج البحث العلميّ

أسماء محمد موسى حمّاد



2014

الاستقراء في النّحو الكوفيّ

من منظور منهج البحث العلميّ

أسماء محمد موسى حمّاد

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد - الأردن

2014

بنية التّفكير العلميّ هرميّة، قاعدتها تقنيّات الاستقراء، وواسطتها أساليب التّحليل، وذروتها التّفسير.

حسن الملخ: التفكير العلمي في النحو العربي، ص20.

المحتويات

المقدِّمة

يأتي العلمُ ـ دائماً ـ بعد أزمةٍ تُجبر العلماء على طرح الحلول المُسعفة. ولكي يصل العالِمِ إلى تلك الحلول، فإنّه يحتاجُ منهجاً علميّاً يتّبعه كوسيلةٍ لبلوغ هدفه. وكلّ منهجٍ علميّ يتكوّن من مراحل ثلاث: فالأساسُ هو جمع المعلومات الكاملة المتوفرة التي تساعدنا على حل المشكلة بوساطة عمليّة (الاستقراء)، يلي ذلك ترتيب هذه المعلومات المجموعة وإجراء مقارنات بينها بوساطة عمليّة (التّحليل)، والمرحلة الأخيرة هي التوصل للحلول عن طريق (تفسير) نتائج التّحليل.

وإذ كان هذا الكتاب يتناول بالدّراسة "المنهج العلمي الذي اتّبعه العلماء الكوفيّون في استقراءِ مادّتهم اللّغويّة"، فقد كان لزاماً أن يتعرّض ـ في البدء ـ لتاريخ النّحو العربيّ، والأطوار الّتي مرّ بها في القرون الثّلاثة الأُوَل، فتحدّث عن: طور (الوضع والتّكوين) الّذي أنتجت فيه البصرة النّسخة الأوّليّة أو النّموذج الأوّليّ للنّحو العربيّ، وطور (النّموّ والنّضج) الّذي وُضِعَتْ فيه تلك النّسخة الأوّليّة للنّحو العربيّ أمام علماء العربيّة من البصريّين والكوفيّين، فقام كلّ فريقٍ بتطويرها حسب المعارف الّتي يختزنها وحسب تأثير هذه المعارف على طريقة ومنهج تفكيره، لنجد أمامنا أنموذجين معدَّلين أو مطوَّرين عن النّسخة الأولى للنّحو العربيّ، وهما: النّموذج النّحويّ البصري، والنّموذج النّحويّ الكوفيّ.

ووجدتِ الدّراسةُ أنَّ قيام نموذجٍ نحويٍّ كوفيٍّ مخالفٍ للنّموذج البصريّ قد سبّب جدلاً بين العلماء حول السّبب الّذي دعا الكوفيّين إلى مخالفة البصريّين، وهم أرباب هذا العلم وروّاده، واتُّهِم الكوفيّون بأنّهم إنّما دفعهم حبّ الظّهور ومناقضة البصريّين إلى إنشاء نحوهم الخاصّ، فابتدأتِ الدّراسة بمناقشة الدوافع العلميّة لاقتراحِ نموذجٍ نحويٍّ كوفيٍّ في الوقت الّذي كانت فيه الساحة العلميّة العربيّة تقدّم نموذجاً مميّزاً للنحو العربيّ في البصرة؛ فتوصَّلتْ إلى أنَّ الكوفيّين

عندما تتلمذوا على أيدي البصريّين وأخذوا النّحو البصريّ، وجدوا أنّ مخزونهم اللغـويّ أوسـعُ من قواعد ذلك النّحو البصريّ. ولأنَّ الكوفيّين كانوا معجبين بصورة هذا العلم الّذي تكـوّن في البصرة، ولأنّهم أدركوا أنّه الحل لمشكلات فهم القرآن الكريم والقضاء على اللّحن فقـد حـاولوا تعديل النّموذج الأوّل بحيث يتّسعُ لما لديهم من مخزون من القراءات القرآنيّة ولغات العرب.

وكانت أوّل خطوةٍ للوصول إلى هـذا النّمـوذج المطلـوب هـي زيـادة مسـاحة البحـث اللغويّ، والسّماح للغاتٍ عربيّةٍ أقصاها البصريّون بأن تكون ضـمن مجتمـع الدّراسـة النّحـويّ. وهذا يعني تعديلاً في منهج الاستقراء. والاستقراء هو أوّل وأهـمّ خطـوةٍ في أيّ مـنهجٍ علمـيّ؛ ذلك أنَّ النّظريّات والقوانين الّتي يتمّ التّوصّل إليها هي بناءٌ يعتمدُ اعتماداً كليّاً عـلى تحليـل مـادّة الاستقراء؛ فكلّما كانت المادّة المدروسة صحيحةً كان البناء محكماً.

كان التوسّع في الاستقراء العقبة الأصعب في عمل النّحاة الكوفيّين؛ فمجتمع الدراسة الّذي ستُدرسُ ظواهره اللّغويّة هـو مجتمـعٌ لغـويٌّ واسـعٌ متبـاين السّـمات والظّـواهر، لدرجـةٍ يستحيل فيها على العلماء إجراء استقراءٍ تامٍّ تُدرسُ فيه كلّ النّصوص العربيّـة الّتـي تكوّنـه نصّـاً نصاً، لذا كان لا بدّ من ممارسة نوعٍ آخر من أنواع الاستقراء، وهو الاستقراء النّاقص الّذي يعني أن تُختار عيّنة كافية من مجتمع الدّراسـة الكبـير، تـتمّ دراسـة الظّـواهر اللّغويّـة فيهـا وتحليلهـا، للوصول فيما بعد إلى قوانين يمكن أن تُعمّم على المجتمع المفتوح.

فكان هذا الكتاب دراسة للفكـر النّحـويّ الكـوفيّ، تحـاول استكشـاف القواعـد الّتـي حكمت منهج العلماء الكوفيّين في استقراء الظواهر اللّغويـة في مصـادر اللّغـة المختلفـة، وذلـك بالإجابة عن الأسئلة: ما أساس تحديد العلماء الكوفيّين العيّنة المناسبة؟ وكيف تأكّدوا من مناسبة العيّنة المختارة لمادّة الدّراسة؟ وما الإجراءات الّتي اتّخذوها للتّأكّد من سـلامة مفـردات العيّنـة؟ وأخيراً: ما هي أدلّتنا على صحّة استقرائهم وعلميّته؟

وهذه الدّراسة مدينةٌ بفكرتها ومنهجها لكتاب أستاذي الـدّكتور حسـن خميس الملـخ: (التّفكير العلميّ في النّحو العربيّ الاستقراء ـ التّحليل ـ التّفسير)، فقد أثار في عقـلي التّسـاؤلات الّتي حاولت هذه الدراسة الإجابة عنها، كما رسم لي المنهج الّذي أحتاجه للوصـول إلى الإجابـة عنها، فالدّراسة مدينة لهذا الكتاب بالفكرة والمنهج، والدّارسـةُ مدينـةٌ لمؤلّفـه أسـتاذي الـدكتور حسن الملخ بما تعلّمته من النّحو، وما انزرع في عقلها من شغف التعلّم والبحـث بفضـل كلماتـه الّتي كان يبثّها في قاعة الدّرس أو في كتبه، ومدينة له لتشجيعه إيّاها على نشر هذه الرّسالة إذ رأى أنَّ فيها جهدٌ في البحث العلميّ الجـادّ يمكـن أن يفيـد منـه المهتمّـون. فالوفـاءُ والامتنـان حـقٌّ لأستاذي عليّ ما بقيت أنفاسي.

جديرٌ بي أن أذكر أنَّ هذا الكتاب هو في الأصل رسالةٌ قـدّمتها لجامعـة القـرآن الكـريم والعلوم الإسلاميّة بالسّودان لنيل درجة الماجستير في النّحو والصّرف، وقد حظيتْ بـإشراف د. يوسف دفع الله أحمد الّذي منحني الوقـت والتوجيـه والـرأي السـديد إلى أن رأى هـذا البحـث النور، كما حظيت بقراءة ومناقشة أستاذي الفاضل: الأستاذ الـدّكتور محمّـد غالـب ورّاق الـذي أدين له بتمليكي مفاتيح فهم كتب النّحو القديم عندما تتلمذتُ على يديـه في السـنة التمهيديـة، وأستاذي المقدّر: الدكتور محمّد عبد الله علي الذي شرُفت بمناقشته هذه الرسالة، وكان لقـراءتهم المتعمّقة وملحوظاتهم الدّقيقة المفيدة ما فـتح أبوابـاً كانـت خافيـةً عـليّ، فلهـم تقـديري ووافـر شكري.

إنّ أهميّة هذا الكتاب تكمنُ في تناوله النّحو الكوفيّ من زاوية المنهج، فهي لم تتوقّف عند حدّ وصف النّحو الكوفي، بل تعدّت ذلك إلى تحليل المـوروث مـن النّحـو الكـوفيّ مسـتعينةً بـما وضعه علم مناهج البحث من قواعد وأسس تضمن سلامة المادّة المستقراة، وذلك لمعرفـة مـدى علميّة منهج النّحاة الكوفيّين في استقراء الظّواهر النّحويّـة في المصـادر اللغويّـة المكوّنـة لمجتمـع

الدّراسة اللّغويّ، وهذا المنحى يُسهم في فهم النّحو الكوفيّ وتاريخه من وجهة نظر المنهجيّة العلميّة.

وإنّي لأدركُ أنّ هذا الكتاب لم يقل الكلمة الكاملة في منهج الاستقراء عند النّحاة الكوفيّين، فنحنُ بحاجةٍ لعملٍ موسوعةٍ تضمُّ مرويات الكوفيّين في النّحو واللغة، ودراستها من منظور المنهج العلميّ، وهذا يستدعي خطّةً للإفادة من كلّ البحوث الّتي يقدّمها الباحثون لنيل الدرجات العلمية، ففيها ممّا هو متفرِّقٌ ما لو جمعناه لكوّنَ لنا تلك الموسوعة، وهذه هي التوصية الّتي تتقدَّم بها هذه الدّراسة.

وختاماً أزجي شكري العميق لوالديّ الرّائعين الّذيْن هيّئاني منذ صغري لأمضي في درب العلم والبحث فلم يدّخرا وُسعاً ولا جهداً للارتقاء بنا في درجات العلم وإني لأرجو من الله أن ينير طريقهما أبداً ويجعلهما من المرضيّين الفائزين بمحبته ورضاه، وشكري الوافر لخالتي الأستاذة حليمة آدم عمر لاهتمامها بمراجعة ما كتبتُ معي كلمةً كلمة، وفكرةً فكرةً، فصحّحت، وأرشدت، وشجّعت فكان لهذه الدراسة أن تخرج بشكلها الحاليّ، وللسيّد الّذي أقدّره في قلبي غاية التّقدير وأشكر له كلّ مساعدةٍ قدّمها قبل البحث، وبعد البحث، وكلّ تشجيعه ودعمه الأدبيّ والعمليّ: تيسير الضّميريّ، راجيةً أن ينير الله قلوبهم ويملأها حكمةً ويجعلنا جميعاً من الصالحين.

أسماء محمّد موسى

الأردن 2012/12/9

تمهيد

مفهوم المنهج العلميّ

لكي نحدّد المقصود بالمنهج العلميّ علينا ـ بدءاً ـ أن نحدّد المقصود بكلمتي: المنهج، والعلم.

أمّا "العلم"، فقد عرّفته بعض المعاجم القديمة بنقيضه؛ فجاء في لسان العرب: العلم: نقيضُ الجهل[1]، وقيل معناه: إدراك الشّيء بحقيقته[2].

وقد استصعب بعض العلماء تحديد المعنى الاصطلاحيّ لكلمة "علم"، فقد ورد عن بعضهم أنّ العلم لا يُحدُّ لعسره؛ لأنّه لا بدّ أن تأتي بكلمة "معلوم" في تعريفك العلم، فيكون من باب إدخال المعرّف في التّعريف. وورد أنّ الغزاليّ عرّف العلم تعريفاً انتقده، ثمّ أورد تعريفاً آخر ثمّ انتقده، ثمّ قال في الأخير: نظريٌّ يعسرُ تعريفه[3].

كما أنّ التّعريفات الاصطلاحيّة الّتي وُضِعت لهذه الكلمة كانت متعدّدة، فالعلمُ مثلاً هو: «نسق المعارف العلميّة المتراكمة»[4] فهو «يُقال لإدراك الكليّ والمركّب»[5]، وبحسب د. زكي نجيب محمود[6] ومن وافقه: «ما هو إلاّ منهجٌ في التّفكير بغضّ النّظر عن الموضوع الّذي تدرسه

---

[1] ابن منظور: لسان العرب، ط (1)، 1410هـ=1990م، دار صادر، بيروت، مادّة (ع ل م).

[2] مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الوجيز، ط (1415هـ=1995م)، د ن، مصر، مادّة (ع ل م).

[3] انظر: حاجي خليفة: كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، صحّحه وعني بطبعه محمّد شرف الدين، دط، دت، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، مج 1، ص 3.

[4] فوقيّة حسن رضوان: منهجيّة البحث العلميّ وتنظيمه، ط (1429هـ=2008م)، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ص13.

[5] إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ط (2)، 1972م، د ن، مادّة (ع ل م).

[6] **زكي نجيب محمود**: (1905م – 1993م): أديب و فيلسوف مفكّر، رائد الدّعوة إلى الفكر الحرّ. وُلِدَ في دمياط، درس ودرَّس في جامعة القاهرة، والجامعات الأمريكيّة، تقلّد العديد من الوظائف، من كتبه: نحو فلسفة علميّة، وشروق من

بذلك المنهج»[7]، وهو أيضاً: «مجموع وسائل وأصول كليّة تدور حول موضوع واحد، وتُعالجُ بمنهجٍ معيّنٍ، وتنتهي إلى بعض النّظريّات والقوانين»[8]، أو: «هو مجموعة المبادئ والقواعد التي تشرح بعض الظواهر والعلاقات القائمة بينها».

وسبب تعدّد التّعريفات لمصطلح (العلم) هو اختلاف النّظرة إليه، فمن نظر لقيمته ومحتواه عرّفه بأنّه المعرفة، ومن نظر إلى الطّريقة الّتي يتم بها التّوصّل إلى تلك المعرفة عرّفه بأنّه منهجٌ في التّفكير، ومن نظر إلى الطّريقة والقيمة والمحتوى معاً عرّفه تعريفاً شاملاً، فقال: «هو مجموع وسائل وأصول كليّة تدور حول موضوع واحد، وتُعالجُ بمنهجٍ معيّنٍ، وتنتهي إلى بعض النّظريّات والقوانين» وهذا التّعريفُ شاملٌ؛ لأنّه جمع بين تعريف العلم من حيث هو معيار وقيمة من ناحية، ووصف لأسلوبٍ في التّفكير من ناحيةٍ أخرى.

فالعلم ـ في الأساس ـ «يهدف إلى تنسيق الظّواهر حتّى يمكن فهمها»[9]. وتنسيق الظّواهر المؤدّي إلى الفهم لا يمكن أن يتمّ ما لم يتّبع الباحث منهجاً جيّداً في البحث والاستقصاء والتّفكير. وهذا المعنى الشّامل هو المقصود في هذا البحث ونحنُ نخلعُ صفة العلميّة على المنهج في قولنا: المنهج العلميّ.

الغرب، والمنطق الوضعيّ. ومما ترجمه: محاورات أفلاطون، والأغنياء والفقراء، وغيرها. توفّي بإحدى مستشفيات القاهرة. **[نزار أباظة، ومحمد رياض المالح: إتمام الأعلام، ط (1)، 1999م، دار صادر، بيروت، ص 102]**.

(7) زكي نجيب محمود: **المنطق الوضعيّ**، ط (4)، 1966م، القاهرة، 2/ 148. **نقلاً عن**: عبد الزّهرة البندر: **منهج الاستقراء في الفكر الإسلاميّ/ أصوله وتطوّره**، ط (1)، 1413هـ=1992م، دار الحكمة للنّشر والتّوزيع، ص13. وانظر: فوقيّة حسن رضوان: **منهجيّة البحث العلميّ وتنظيمه**، ص 17.

(8) مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الوجيز، مادّة (ع ل م).

(9) محمود قاسم: المنطق الحديث ومناهج البحث، ط (2)، 1372هـ=1953م، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ص61.

أمّا كلمة "المنهج" فتعني في اللُّغة: النّهْجُ، وهو البيّن الواضح. نقول: طريقٌ نَهْجٌ، وسبيلٌ مَنْهَجٌ[10]. ويُقال: مِنهاجاً ومَنْهَجاً[11] ومِنْهَجاً[12]، وتذكر معاجم اللّغة الحديثة معنًى آخر للمنهج وهو: الخطّة المرسومة[13]. ولا يبعدُ هذا المعنى عن المعنى الأوّل؛ فالخطّة المرسومة تبيّن الطّريق وتوضّحه.

ومن هذا المعنى اللّغويّ انبثق المعنى الاصطلاحيّ لكلمة "منهج"؛ إذ تُعرِّفُ كتبُ المنطقِ المنهجَ بأنّه: «طائفة من القواعد والأصول الّتي تهدف إلى تعبيد طريق الباحث عن الحقيقة»[14]. فهو «الطّريقة المنظّمة في التّعامل مع الحقائق والمفاهيم، أو التّصوّرات، أو المعاني»[15].

وإذا كان العلم في إحدى تعريفاته: طريقة في التّفكير تهدف إلى تنسيق الظواهر وتفسيرها، وكان المنهج خارطةً وطريقةً منّظمةً تيسّر للباحث الوصول إلى مبتغاه، فإنّ بإمكاننا حدّ المنهج العلميّ بأنّه: «**الخطّة المنظّمة الموصلة إلى التّفسير الصّحيح للظّاهرة موضوع البحث**».

وعلى الرّغم من أنَّ المنهج العلميّ لم يُجدّد إلاّ بعد "بِيْكُون"[16]، إلاّ أنَّ هذا لا يعني أنّ المفكّرين قبل "بِيْكُون" لم ينتهجوا نهجاً علميّاً؛ فانتهاج طريقة علميّة في حلول المشكلات الّتي واجهت البشريّة منذ الأزل عمليّةٌ عقليّةٌ، سبقت تقعيد وتقنين المناهج العلميّة، لذا اختار د.

---

[10] ابن منظور: لسان العرب، مادّة (ن هـ ج).

[11] المصدر نفسه، مادّة (ن هـ ج).

[12] إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ط (4)، 1425هـ=2004ن، مكتبة الشّروق، مصر، (ن هـ ج).

[13] **المرجع نفسه**، المادّة نفسها. ومجمع اللّغة العربيّة: **المعجم الوجيز**، مادّة (ن هـ ج).

[14] عبد الفتّاح محمّد العيسويّ، وعبد الرّحمن محمّد العيسويّ: مناهج البحث العلميّ في الدّراسات الإسلاميّة، ط (1996م–1997م)، دار الرّاتب الجامعيّة، مصر، ص 14.

[15] محمّد تقي المدرسي: المنطق الإسلاميّ أصوله ومناهجه، دار البيان، لبنان، ط (3).

[16] **بِيْكُون**: فرانسيس بِيْكُون (Francis Bacon) (1561م – 1626م) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على " الملاحظة والتجريب ". من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس.

حسن المَلْخ[17] ـ أن يسم دراسته في المنهج النّحويّ باسم: التّفكير العلميّ في النّحو العربيّ، لا (المنهج العلميّ) وقد عرّف التّفكير العلميّ بقوله: «التّفكير العلميّ هو وصفٌ للانتقال المنهجيّ المعلّل المدروس بين جزئيّات القضيّة العلميّة أو الحياتيّة الواحدة»[18] ولعلّ هذا التّعريف مقاربٌ لتعريف المنهج العلميّ بشكلٍ عامّ، وهذا هو المعنى الّذي أقصده وأنا أدرسُ (الاستقراء)، هذا المنطلق الأساسيّ في منهج بناء النّحو العربيّ.

بنية المنهج العلميّ

اختلفت المناهج العلميّة باختلاف القضايا التي يُبحثُ فيها؛ فهناك من القضايا ما تحتاجُ بحثاً في التّاريخ، ومنها ما تحتاجُ إعمال القوانين الرّياضيّة، أو الإحصاء، أو المقارنة، أو غير ذلك من أنواع المناهج. ولكلّ هذه المناهج أسسٌ ومنطلقاتٌ دأب علم المنطق على دراسة أشكالها، والكشف عن القواعد المنطقيّة والشّكليّة الّتي يجب أن يلتزمها الباحث في بحثه.

غير أنّ البنية الأساسيّة، والقانون العامّ الّذي يحكم تلك المناهج أنّ «كلّ منهجٍ في البحثِ لا بدّ أن يكون فرضيّاً استنتاجيّاً»[19] فتحديد المشكلة أو الظّاهرة، وجمع الملاحظات عنها بوساطة الحواس هو الخطوة الأولى، يلي ذلك تحليل العقل لهذه الملاحظات المجموعة عن الظّاهرة حيث يقرّر الأسلوب أو الطّريقة المناسبة لدراستها، ثمّ يحاول العقل بعدها إيجاد علاقة

---

(17) **حسن خميس الملخ**: عالمٌ أردنيّ، من أهمّ علماء النّحو العربيّ واللسانيات في العصر الحديث، توزّع اهتمامه العلميّ على ثلاثة مجالات بحثيّة: البحث في نظريّة النّحو العربيّ ضمن إطار الموروث من التراث النّحويّ، والبحث في نظريّة النّحو العربيّ ضمن اللسانيات الحديثة، والبحث في تاريخ النّحو العربيّ. من مؤلّفاته: (نظريّة الأصل والفرع)، و(نظريّة التّعليل عند القدماء والمحدثين)، و (رؤى لسانيّة في نظريّة النّحو العربي).

(18) حسن خميس المَلْخ: التّفكير العلميّ في النّحو العربيّ/ الاستقراء –التّحليل – التّفسير، ط (1)، 2002م، دار الشّروق، عمّان، ص 13.

(19) محمود قاسم: المنطق الحديث ومناهج البحث، ص 3.

بين الكمّ الهائل من الملاحظات والمعلومات المجموعة عن الظّاهرة وذلك بوضع فرضيّات، يحاول العقل تفسيرها ووضع أدلّة على صحّتها لتكوين النّظريّة أو الحلّ أو القانون. وهذا ما عبّر عنه أستاذي الفاضل حسن خميس المَلْخ بقوله: «بنية التّفكير العلميّ هرميّة؛ قاعدتها تقنيات الاستقراء، وواسطتها أساليب التّحليل، وذروتها التّفسير»[20].

ولأنّ (الاستقراء) مرحلة أساسيّة في المناهج العلميّة، يسعى هذا البحث لدراسة الاستقراء في النّحو الكوفيّ بوصفه خطوةً أولى في منهج النّحو الكوفيّ، ومنهجُ البحث قائمٌ على النّظرة التّحليليّة لخطوات النّحويّين الكوفيّين في استقرائهم الظواهر اللّغويّة في مصادر اللّغة المختلفة، مع جعل قواعد الاستقراء العلميّ أساساً وضوءاً يُستدلُ به في التّحليل.

(20) حسن خميس المَلْخ: التّفكير العلميّ في النّحو العربيّ، ص 20.